محركات النهضة هل ستدور من جديد؟

بقلم: د.منقذ العقاد
كاتب وناقد وصحافي

الإنسان في ميزان القرآن مخلوقٌ مسؤول، ومحاسب، ومقتصد.
تصبُّ مخارج الاقتصاد الإسلامي في واحد من ثلاثة أمور: استثمار نهضوي مستدام، وتنمية اجتماعية تمنع نشوء الفقر وطبقاته، وتنمية علمية تشجع الاختبارات التطبيقية النهضوية في علوم الشريعة وعلوم الحياة معاً.
إنَّ الاقتصاد الإسلامي هو الوسطية بين الاشتراكية بعدالتها العمياء وبين الرأسمالية بفرديتها الصمّاء.
كان للوقف الإسلامي أثره العظيم في النهضة العلمية الواسعة ديناً ودنيا في عصورٍ خلت.

يختلف جوهر الاقتصاد الإسلامي عن سواه من الأنظمة الاقتصادية السائدة حالياً في كونه اقتصاداً قائماً على بنيان أخلاقيٍّ حميد، وعلى عدالة اجتماعية، وعلى رؤية نهضوية شاملة.

وإنَّ أية عملية حيوية لها مداخل وآليات معالجة ومخارج، وهذا ينطبق على أصغر وحدات الحياة وأعني الخلايا، وعلى أكبرها عضوية وتمايزاً من مخلوقات الله المتنوعة.

ولمَّا كان لكل شيء مداخله فإن مداخل الاقتصاد الإسلامي ذات فلاتر تسمح بنفوذ الموارد الحلال وفق معايير الإسلام الحنيف وتمنع وتعرقل الموارد الحرام أو الخاضعة للريبة والشك وتحيلها إلى تنقية ومعالجة أخرى تمحِّص نفعها من ضررها وصلاحها من فسادها.

ومعايير الإسلام في تقييم الموارد يتجلى في مدى تحقيقها لشروط الجودة الأخلاقية والإنسانية، وهذه الشروط هي: الحق والعدل والإصلاح والجهد الطبيعي المخطط له بعيداً عن ضربات الحظ العشوائي.

ولهذا فأية موارد جاءت من سرقات ظاهرة أو باطنة أو من استغلال كالربا وأكل ميراث.. أو سطو مالٍ عام أو خاص بالقوة، أو من أعمال رابحة نعم ولكنها تقوم على بنيانٍ أخلاقيٍّ فاسدٍ ومُفسدٍ للناس، أو من طرائق جلبٍ للمال بالحظ والعشوائية والتمني.. فإنَّ كل تلك الموارد غير مقبولة في معايير الإسلام وغير مجدية أو مثمرة لا في حياة الناس الحالية ولا في عاقبة أمرهم ومستقر مآلهم.

فالإنسان في ميزان القرآن مخلوقٌ مسؤول، ومحاسب، لا يعيش عبثاً ولا يموت عبثاً ولا يترك هكذا من دون محاسبته على مصادر رزقه ومنافذ إنفاقها، وفق ميزان عمراني دقيق لا إسراف فيه ولا تقتير.

وإنَّ آليات المعالجة للمال واستثماراته قائمة على تحقيق مسارات ورؤى بناء الاقتصاد وما ينبغي أن يجنيه المجتمع بمؤسساته وأفراده.

وتلك الآليات إنما تنبثق من أقلام وعقولٍ مختصة وخبيرة تضع في حسبانها المعايير الآنفة للاكتساب المادي وكذلك لمنافذ وسبل الإنفاق وأبعاده الاستراتيجية في عمران الحياة والإنسان على هذه الأرض.

وإنَّ مخارج الاقتصاد الإسلامي تكاد تصبُّ في واحد من ثلاثة أمور: استثمار نهضوي مستدام، وتنمية اجتماعية تمنع نشوء الفقر وطبقاته وما يتبعها من خلل في التوازن الاجتماعي وبالتالي الفردي، وتنمية علمية تتبنى طلاب المعرفة وتشجع الاختبارات التطبيقية النهضوية في علوم الشريعة وعلوم الحياة معاً، إذ الشريعة مصباح الحياة وهما متلازمان تلازم الشمس والنهار .. فلا نهار من دون ضياء الشمس ولا حياة ناجحة ومثمرة من دون ضياء مصباح الشريعة السمحاء.

إنَّ المال ركن زاوية في بناء العالم وعمران الكون.. وقد قرنه الله تعالى مع النفس في التضحية والبذل، فالعطاء المادي مديد الأثر عظيم النفع والجدوى ولا يقل أهمية عن وهب النفوس ومنح الحياة في سبيل نيل أهداف الإنسان الكبرى.

ولهذا فإنَّ صرف المال العام والخاص ليس شيئاً اعتباطياً بل باقتصاد ودراية وحساب وتقدير وبميزان قرآني حكيم فلا إسراف حدّ الإتلاف ولا إقتار حدَّ الجفاف، بل بين هذا وذاك وذلك في تمثيل تصويري عميق الأثر صوَّره كتاب الله ما بين يدٍ مبسوطة كل البسط وأخرى مقبوضة.

وإنّ تحديد أهداف الصرف ومبتغاة هي غاية بحدِّ ذاتها، ومن هنا يأتي التحقق من منافذ صرف المال. وكل ذلك وفق محاور بناء وعمران الحياة عمراناً جماعياً بنيويًّاً وليس فردياً طبقياً تفكيكيّاً.

لقد ساد العالم المعاصر منذ عقود طويلة أخيرة واحد من نظامين ماليين وسياسيين هما: النظام الاشتراكي والنظام الرأسمالي.

لقد هدف النظام الاشتراكي وفق أدبياته إلى العدالة الاجتماعية ولكنه أفرط في إبعاد خصلة جوهرية في الإنسان وهي خصلة التملك الفردي والتمايز الذاتي.. فتعامل مع أفراد المجتمع وكأنهم فرد واحد.. وشتان بين المساواة وبين العدالة، ولهذا فمساواته المجحفة أطلقت رصاصة الفناء على عدالته المائلة.

بينما قام النظام الرأسمالي بمراعاة خاصية التملك الفردي والتمايز الذاتي، ولكنه أفرط في إحقاقها لدرجة كرّس رؤوس الأموال في أيدي أفراد قلّة تحكم المجتمع وتتحكم بمصائر أناسه.. فانفلق نسيج المجتمع وطافَ على سطحه أناسٌ فاحشون في الثراء متمركزون حول ذواتهم.. يعبدونها ويستعبدون في سبيلها طبقات اجتماعية هائلة لا يرون فيها إلا وقوداً لآلاتهم ودماً يسيل في عروق شركاتهم العابرة للقارات والأخلاق والأعراف السماوية.

لقد تمادى النظام الرأسمالي العالمي وخاصة بعد انهيار بنيان النظام الاشتراكي الأممي القائد متمثلاً في الشيوعية السوفيتية والتي نجت منها وانفلتت بخصوصيتها الشيوعية الصينية القومية ومن على شاكلتها.

وقد بلغ التمادي بالنظام الرأسمالي حدّ التقنع التمثيلي بقناع العولمة الرحيمة ليكون من وراء القناع مسعى آخر لمد السيطرة على العالم وبسط النفوذ وفرض العادات كلها عادات القوي الغالب والمسيطر على الموارد والوثائق والمجالس الدولية.. وانتفخت ذوات المنظرين حتى بلغ بهم الأمر إلى جحود نِعم الخالق.. والإعلان مع استنساخ الشاة دولي على لسان علماءٍ منهم أن الإنسان بلغ العصر والحد الذي يستطيع فيه الاستغناء عن خدمات الرب!

إنَّ الإنسان الغربي الأبيض السوبرمان الخارق هو الفرد المُقدَّر والمُقدَّس والمعبود في قناعات ومرتكزات تلك المجتمعات وهو الذي يروج له في فلسفاتهم التي تطلقه حراً من كل شيء حتى من أدنى القيم وأعلاها.. ويروج له في إعلامهم وأفلامهم.. حتى أعلن فوكوياما في لحظة نشوة مصيرية عصر نهاية الحياة وبلوغ مرتبة "الإنسان الأخير" الفعال لما يريد والقادر على قيادة الكون.. الإنسان الرأسمالي العولمي الغربي البراغماتي المسيطر والمتمايز عن الألوان والأعراق التي هي دونه والتي يجب أن يمتصّ نخاع مواردها الاقتصادية ثم يمنحها مخلفاته وكأنها رحيق العسل الخالص للشاربين.

لقد أخطأ هؤلاء في تقديراتهم وفق منظورنا القائم على بناء الإنسان المتفرد والاجتماعي العادل والمصلح في الأرض.. وإنّ ضعف ثقتنا برصيدنا الحضاري الإسلامي منذ عقود وبحكم موجات وتيارات وافدة علينا أخذت وقتها وكان لها رجالها ثم ثبت فشلها اليوم وهي الآن في طريقها للتلاشي لهو أمرٌ يجعلنا نعيد الحسابات ونراجع مرجعياتنا السائدة خاصة مع عودة سطوع نجم حضارة الإسلام من بعيدٍ، سطوع مصباح السفينة

إنَّ الاقتصاد الإسلامي هو الوسطية بين الاشتراكية بعدالتها العمياء وبين الرأسمالية بفرديتها الصمّاء.

وإنَّ مقاييس إسلامية جوهرية ثلاثية المستويات في الصرف وهي: الصدقات، والزكاة، والوقف لهي أذرع تنموية ونهضوية فعلت أفعالها الخالدة في سجل الحضارة الإسلامية،حيث كان للصداقات أثرها كالصمغ في رصّ الصفوف ولصق الأنفس بالأنفس ككيان واحدٍ وجسدٍ واحد وروح واحدة.

وكان للزكاة أثرها البالغ في رتق الفتق بين الغني والفقير وسدِّ الثغرات وتنفيس الاحتقان وتبريد المراجل والمواقد.

وكان للوقف الإسلامي أثره العظيم في النهضة العلمية الواسعة ديناً ودنيا في عصورٍ خلت.. وكم أفاد منه علماء وطلاب وتيارات وأسراب اجتماعية عديدة.

إننا اليوم أحوج ما نكون إلى مؤسسات مالية إسلامية وقد ثبت بالبرهان القاطع أنَّ ظاهرة البنوك الإسلامية هي أكثر ظاهرة صحية بعد عاصفة الأزمة الكونية المدمرة.. وأنها ظاهرة قادرة على البقاء والنجاح والإثمار، بل وقد كانت مكتنزة بالنجاح في وقت تداعت فيه صروح مالية عالمية وآلت للسقوط، وعلى الرغم من أنها ظاهرة شعّت إلا أن تسيساً محلياً وإقليميا قد سيطر عليها وعتّم على ألقها زوراً وبهتاناً.

إننا اليوم أحوج ما نكون إلى تجمُّع علميٍّ حضاريٍّ من ذوي الخبرات الاقتصادية والمصرفية من أهل الأمة ومن عباقرتها وعلمائها وخبرائها لنضع منهجاً اقتصادياً ونظريات بديلة تلاءم أمتنا وقيمها وجذورها الحضارية ومراميها ومقاصدها الحياتية والشرعية.

اليوم نحن بحاجة لإعادة إطلاق حلول الإسلام الصالحة لكل مكان وزمان.. بحاجة لتفعيل الزكاة التي كرر ذكرها ربنا كثيراً في كتابه المُنزَّل.. وبحاجة لإعادة تحريك مسننات ومحركات الوقف الإسلامي بآفاقه النهضوية الإستراتيجية، ولعلّ ما قام به حاكم دبي الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم بإطلاقه مؤسسة محمد بن راشد للمعرفة بوقف إسلاميٍّ شخصي يجب أن يصبح أنموذجاً يحتذى لإعادة تكثيف وتجميع ولمِّ موارد المال في قنواتها النهضوية الفاعلة والتي تخدم عمران الحياة والمجتمع،وخير الإنسان في دنياه وآخرته.

فهل سنرى قريباً محركات نهضة الأمة وقد شرعت في الدوران.. وأثمرت خيراً مديداً لنا ولأجيالنا القادمة.. لنشق سبيلنا الوسطي بين الأمم، إذ قدرنا أن نكون متبوعين لا تابعين.. أحراراً لا عبيداً، نشارك في البناء الإنساني بدلاً من أن ننفذ خارطة بنائهم هم وكأننا عبيد أهراماتهم وعينها الثالثة.